بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والصلاة والسلام على من أنزل عليه ربُّه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

وبعد، فإن الدعوة إلى الله مُهّمة الأنبياء والرسُل، ومُهِمَّة أتباعهم الذين آمنوا بهم، وهي مُهِمّة شريفة، بل تُعْتَبَر من أشرف الأعمال عند الله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

كما أنها مهَّمة هامَّة وخطيرة إذ يتوقَّفُ عليها مصير البشر وهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فالناس الذين تَبْلُغهم هذه الدعوة ويستجيبون لها هم المؤمنون في الدنيا، الفائزون برضوان الله في الدنيا والآخرة، وعلى العكس، فالناس الذين تبلغهم الدعوة ولا يستجيبون لها هم الكافرون بالله، المستحقون غضب الله وعذابه.

obeikandl.com

والله تبارك وتعالى خالق الإنسان، لمّا خلقه في هذه الحياة الدنيا لم يتركه سُدًى يتخبّط وحده في دياجير الظلمات، وحَيْرة الشك، ووساوس الشياطين وإيحاءاتهم، ولكنه سبحانه هَدَاهُ إلى الصراط المستقيم، وبيّن له السبيل الذي يجب أن يسلكه في هذه الحياة الدنيا ليفوز برضوان الله. فما هو هذا السبيل؟

لقد أرسل الله للبشرية رسلاً مبشرين ومنذرين، وأرسل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس، فما على الناس إلا تصديق الرسل بكلّ ما جاءوا به من عند الله، وسلوك السبيل إلى الله الذي بيّنوه للناس، الموصل إلى رضوان الله.

إنَّ معالمَ السبيل إلى الله واضحةٌ بيّنة، ليس فيها لَبْسٌ ولا خفاء، قال رسول الله ﷺ: «**تركتكم على مَحَجَّةٍ بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**» (أخرجه ابن عبد البر في: **جامع بيان العلم وفضله**). وقال ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسَّكتم بهما كتاب الله، وسُنَّةَ رسوله**» (أخرجه مالك في: **الموطأ**).

لقد بيّنت الآيةُ الكريمة والحديثان الشريفان أنَّ سبيل الله هو دينُه «الإسلام» فما على المرء المسلم إلا تَعَلُّمه وتطبيقُه على نفسه، وفهمُه فهماً جيّداً، والتزامُه التزاماً قوياً؛ لأن فيه سعادة الداريْن الدنيا والآخرة، وهو طريق النجاة.

قصة هذا الكتاب

وقد سألني الأخوة المسؤولون في إذاعة القرآن الكريم أن أقدّم عبر الإذاعة برنامجاً إذاعياً يخاطب المسلمين، ويبيّن لهم السبيل إلى

الله في هذا الزمان العصيب يكون فيه النفعُ عاماً، فرأيت من الواجب تلبيتهم، وقمت بإعداد حلقات متتالية وفق خطّة تهدف إلى تحصين الجبهة الداخلية للمجتمع الإسلامي، أعني: «العقيدة» أو «الإيمان بالله سبحانه وتعالى».

وأما تسمية البرنامج «السبيل إلى الله» فقد اقترحتها مديرة البرامج في الإذاعة الأخت الفاضلة: «هند عجوز» وهي التي اختارت اسمه وموضوعه وكانت المُحاورَة في حلقاته، وقد لَمَسْتُ تفانيها وغيرتها الشديدة على إنجاحه، بما كانت تحاورني وتناقشني في مواضيعه، وتقترح من أفكار، وتشتري من كتب، فلله أولاً يعود الفضل في إعداده، ثم لهذه الأخت الداعية إلى الله التي تعمل بخفاء كالجندي المجهول، مبتغية رضوان الله تعالى، فجزاها الله عن الإسلام والمسلمين كل خير، وجعل ثوابه في صحائف أعمالها.

وبعد إذاعة البرنامج، سألني الأستاذ «محمد فولادكار» مدير دار المعرفة عن إمكانية نشر البرنامج بشكل كُتيِّب مطبوع، وأنه استشار الأستاذ «زياد دندن» مدير الإذاعة، فأشار عليه بطبع الكتاب، فلم أر مانعاً من طبعه رجاء أن يصل مضمونه إلى يد القرّاء، الذين لم يتسنّى لهم سماعه على الهواء، فيعمَّ نَفْعُه، وتنتشر بركته، فجزاهما الله خيراً على غيرتهما وجعله في صحائفها.

خطة الكتاب ومنهجي فيه

قد قسمت الكلام فيه إلى تمهيد وبابين وخاتمة.

أما التمهيد فضمنته فصولاً هامة في معرفة النفس

الإنسانية، وطرق المعرفة عند الإنسان، وتعريف الإيمان وأهميته في حياة الإنسان، وموقف الإيمان من العلم، ومن الإلحاد، وحشدت أقوال كبار العلماء الطبيعيين في الرياضيات والطب والهندسة وسائر العلوم الكونية حول الإيمان بالله وضرورته، ثم سقت أربعة أدلة علمية على وجود الله الخالق.

وأما الباب الأول: فخصّصته بمعرفة الله سبحانه وتعالى، وجعلته ضمن ثلاثة فصول، الأول: لبيان الإيمان بالله تعالى الصحيح وضرورته، والثاني: لبيان صفات الكمال له، والثالث: لبيان أسمائه الحسنى وتكلمتُ عن كل اسم منها بالتفصيل، فَبَيَّنْتُ شرح معناه، وأقوال العلماء فيه من كتبهم لا سيما حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي في كتابه «**المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى**». ثم سقت أقوال المفسرين فيه، وأثره على الإنسان.

وأما الباب الثاني فخصصته لبيان السبيل القويم إلى الله تعالى، وتكلمت عن تزكية النفس الإنسانية لتكون أهلاً لهداية الله وأساليب تزكيتها وضرورة مجاهدتها، وبَيَّنْتُ الأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلّى بها العبد المؤمن، والأخلاق الرّذيلة التي يجب أن يتخلّى عنها، وبيّنتُ ضرورة التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ وأخلاقه وشمائله وصفاته. وختمتُ كما بدأتُ بكلمة عن الدعوة إلى الله.

وقد اتبعتُ في أسلوبي المنهج العالي المدلّل بالأدلة النقلية والعقلية، وكان اعتمادي بعد الله تعالى على أقوال علماء السُنَّة والجماعة في العقيدة، ولم أخرج عمّا قرّروه في كتبهم من مسائل

العقيدة، كما دعمت كل فكرة بالبراهين والأدلة العلمية والحجج من أقوال علماء المسلمين والغربيين والمكتشفين، وذلك لأن مخاطبة الشباب المثقف اليوم تتطلب أسلوباً علمياً خاصاً، ينفذ إلى مسامعهم وعقولهم وقلوبهم، ويزيل شكوكهم وأوهامهم التي يتلقّونها في مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وقد قال ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أخاطبَ الناس على قَدْرِ عقولهم**» لأن الإيمان هو الأساس.

وقد وفّق اللّهُ القائمين على الإذاعة لإعداد هذا البرنامج، وسهّل أسبابه بفضله وكرمه، فله الحمدُ أولاً وآخراً، ولهؤلاء الأخوة الشكر والتقدير على ما بذلوه وقدّموه في سبيل إنجاحه.

والله أسألُ أن يتقبّلَ عملي هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد راغب قباني خير الجزاء على ما يقدّمهُ للمحافظة على الدين في وجه الهجمة العالمية الشرسة عليه، وأن يُعينه ويوفّقه ويُهَيىء له البِطانَة الصالحة التي تدلّه على الخير وتُعينُه عليه، كما أشكر كل من ساهم في إخراجه، وقد قال ﷺ: «**من لم يشكر الناسَ لم يشكر الله**» والحمد لله أولاً وآخر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب فقير عفو ربّه الغني يوسف المرعشلي

بيروت في 14 جمادى الآخرة 1423 هـ

الموافق له 26/ تموز 2002 م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108].

﴿قُلْ﴾ أَوَّلُ ما يلفت انتباهنا تصدير هذه الآية الكريمة بلفظة ﴿قُلْ﴾، ذلك أن النبي ﷺ أُمِرَ أن يقول القرآن الكريم كله للناس، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: 67] أي: بلِّغ جميع ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تبلغ جميعه وأديت بعضاً دون بعض فكأنك أغفلت أداء الرسالة جميعاً. وإذن فلِمَ صُدِّرت هذه الآية بـ ﴿قُلْ﴾؟ إنّ افتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين؛ لأن مثل هذا الافتتاح يُشعر بأنه في غرض مهم.

القول هو الأصل في تبليغ الدعوة:

وحيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يقول للناس: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ فيجب أن يعلم أن القول هو الأصل في تبليغ الدعوة إلى الله... فلا يجوز للمسلم أن يغفل مكانة القول، فهو الوسيلة في إيصال الحق إلى الناس.

والقول في مجال التبليغ أنواع متعددة، وليس كما يظن بعض الناس أنه خطبة أو درس، بل هو يشمل إضافة إلى ما سبق المحاضرة، والندوة، والمناقشة والجدل، ووسيلة التبليغ بالقول تبلغ عن طريق الوسائل الآتية:

أ ـ اللقاءات العامة: كإقامة المحاضرات، والندوات والمناقشات، والدروس في المساجد، والجامعات، والمعاهد، والمدارس والمؤتمرات، وفي المناسبات التي يحضرها الناس بصورة جماعية كبيرة.

ب ـ اللقاءات الخاصة: كالدروس الخاصة بطلاب العلم، ولا يمنع حضور غيرهم.

ج ـ الدعوة الفردية: بالنصيحة الأخوية.

د ـ الكتابة، بالرسالة: والمقال، والكتاب، والكتيب، والنشرة.

هـ وسائل الاتصال الحديثة: المسموعة والمرئية والمقروءة والشخصية.

و ـ الوسائل الشخصية: كالمسجلات، وأشرطة التسجيل، والهاتف..

وينبغي أن يكون واضحاً بيناً خالياً من الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً، وخطأً وصواباً، وأن يستعمل الألفاظ الشرعية المستعملة في القرآن والسنَّة وعند علماء المسلمين. كما ينبغي أن يتأنّى في كلامه

حتى يستوعب السامعُ كلامَه ويفهمه، وأن يبتعد عن التفاصح والتعاظم، والتَكَلُّف في النطق، ويبتعد عن روح الاستعلاء على المدعو واحتقاره وإظهار فضله عليه، وأن يتلطَّفَ بالقول للمَدْعُوِّين ويكونَ موضعَ ثِقَةٍ بين الناس.

﴿قُلْ﴾: إعلان بعزم وشجاعة:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي: قُلها وأعلنها ولا تُسِرَّ بها، إنه إعلان جريء قوي في مواجهة التيار المنحرف الجارف. إن هذا الإعلان الجريء يحتاج إلى شجاعة، ولذلك كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المُدَّثِّر: 1 ـ3] يوجِّهُ اللَّهُ تعالى رسولَه ﷺ إلى أن يُكبِّر ربه.. إنّ كلَّ أحدٍ، وكلَّ شيءٍ، وكلَّ قيمةٍ، وكلَّ حقيقة صَغِيرٌ، واللَّهُ وحدَه هو الكبيرُ، وتتوارى الأجرام والأحجام، والقوى والقيم، والأحداث والأحوال، والمعاني والأشكال، وتنمحي في ظلال الجلال والكمال لله الواحد الكبير المتعال. وهو تَوْجِيهٌ للرسول ﷺ ليُواجه نَذَارَةَ البشرية ومتاعِبَها وأهْوالَها وأثْقالها، بهذا التصور، وبهذا الشعور، فيستصغرَ كلَّ كيد، وكلَّ قوة، وكلَّ عَقَبَةٍ، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة هو الكبير ومشاقُّ الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

عالَمِيَّة الدَّعوة إلى الله

﴿قُلْ﴾ ولكن لمن يوجه القول؟ إن هاهنا حذفاً، والمعنى: قل يا محمد للثقلين: الإنسِ والجنّ. والحَذْفُ باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك

الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تَنْطِقْ وأتمَّ بياناً إذا لم تُبِنْ. وقد تقرَّر في علم المعاني أنَّ من أغراض الحذف: العُمُومَ.

وكون رسالة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم عالَمِيَّة قد قررتها آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: 52] كانت الدعوة في مكة تقابَلُ بذلك الجحود، ويقابَلُ رسولُها بتلك النظرات المسمومة المحمومة، ويرصِدُ المشركون لحِرْبِها كلَّ ما يملكون... وهي في هذا الوقت المبكِّر، وفي هذا الضيق المستحكم، تعلن عن عالَميَّتها، كما هي طبيعتها وحقيقتها، فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة ـ كما يدعي المفترون اليوم ـ إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى؛ لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها. كذلك أرادها الله، وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى، وكذلك تتجه إلى آخر الزمان.

وكون الدعوة للعرب، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وأما كونها دعوة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالدليل على ذلك أن النبي ﷺ راسل الملوك ودعاهم إلى الإسلام، من ذلك ما أخرجه البخاري في أول صحيحه من الكتاب الذي بعثه النبي ﷺ إلى هرقل وفيه: «**من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين...**» الحديث.

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة:**

يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار».

بل قد بُعث ﷺ إلى الجنِّ أيضاً، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: 29 ـ 31].

فالجنّ مكلَّفون على لسان نبينا ﷺ، بدلالة الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وأنّ كافرهم في النار بإجماع المسلمين، وهو صريح قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: 94، 95] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما مُؤمِنُوهم فقد اخْتُلِفَ في دخولهم الجنة، والظاهرُ أنهم يدخلونها، وذلك للعموم الذي في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: 46]، والعلم عند الله تعالى.

ويكفي في الدلالة على عالمية الإسلام ما ذكرناه من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107] وغير ذلك.

دعوة ربانية:

إن الأمر في قوله تعالى ﴿قُلْ﴾ ليفهم المشركون أن القضية ربانيَّة، وأن الثبات عليها ليس مسألة عناد، وإنما هو دين، فالخصيصة الأولى للإسلام أنه من عند الله تبارك وتعالى. إن مصدر

الإسلام ومشرع أحكامه ومناهجه هو الله تعالى، فهو وَحْيُه إلى رسوله الكريم ﷺ باللفظ والمعنى (القرآن الكريم)، وبالمعنى دون اللفظ (السنة النبوية)، فالإسلام بهذه الخصيصة يختلف اختلافاً جوهرياً عن جميع الشرائع الوضعية؛ لأن مصدرها الإنسان، أما الإسلام فمصدره رب الإنسان. هذا الفرق الكبير بين الإسلام وغيره لا يجوز إغفاله مطلقاً ولا التقليل من أهميته. ويترتّب على هذا الأمر ـ وهو أن الإسلام من عند الله ـ ما يأتي:

1 ـ كَمالُه وخُلُوُّه من النقائص.

2 ـ أنه يظفر بقدر كبير جداً من الهَيْبَة والاحترام من قِبَلِ المؤمنين به.

إعجاز القرآن:

من الشُبُهاتِ التي يُثيرها أعداءُ الإسلام: (أن القرآنَ الكريمَ كلامُ محمدٍ، نَسَبَهُ إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ رَدٌّ عليهم؛ لأن هذه اللفظةَ فِعْلُ أَمْرٍ، وهي تدلّ على أن هناك آمِراً ومَأْمُوراً، فإذا كان الرسول ﷺ قد صاغ القرآن الكريم بأسلوبه؛ فمن الذي أمره بأن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؟ وهناك رُدُودٌ كثيرة على هذه الشبهة، منها: وجود آياتِ العِتَاب كـ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: 43]، وحادثة الإفك، وأسرى بَدْر وغير ذلك.

لقد وردت لفظة: ﴿قُلْ﴾ في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مرة، وقد أدّاها رسول الله ﷺ كما سمعها من جبريلَ عليه السلام، عن ربِّ العِزَّة جلَّ شأنه.

﴿هَٰذِهِۦ﴾: (ها): أداة تنبيه، وهي حرف جيء به لتنبيه المخاطب على المشار إليه. وعلى هذا فينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يستعينوا بالأساليب التي من شأنها أنْ تَشُدَّ انتباهَ السامعين، وهي كثيرة، فَلْيَخْتَرْ منها ما شاءَ لكي يكون لكلامهِ الأثرُ المطلوبُ، ومن تلك الوسائل: استخدام أدوات التنبيه.

﴿هَٰذِهِۦ﴾: تنزيل الدعوة منزلة المحسوس:

أصل الإشارة يكون إلى مشاهد في الوجود، أو منزّل منزلته. إذن لِمَ عبّر عن الدعوة أو الإسلام باسم الإشارة؟ لقد نَزَّلَ القرآنُ الكريم المعقولَ منزلةَ المحسوس لبلوغه من الوضوح حداً لا يخفى فيه، إلا عَمَّن لا يُعَدّ مدركاً. ولذا قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: 256]، وهذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه واتضاح آياته وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو ما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورَدَّه ولم يقبله فإنه لعناده، أو لتقصير الدعاة في بيان كمال هذا الدين، حتى يلمَسَ المَدْعُو كمالَ هذه الشريعة الغراء وجمالها.

إن على المسلم أن يبلِّغ الدَّعْوَةَ كما هي صحيحةً حسناءَ لا كسيحةً شَوْهَاء. إن كثيراً من الدُعاةِ يسيئون فهم قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى

﴿ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: 99]، فيَظُنُّون أن البلاغَ كلمةٌ تقال، وإذا بالداعية قد أدَّى ما عليه. إنَّ أمْرَ الدعوة إلى الله ليس بأقلّ من أمر الدعوة أو الدعاية إلى سِلْعَةٍ دُنْيَوِيَّة، ونحنُ على يقين أن صاحب البضاعة يستخدم أقوى الوسائل وأوسعها انتشاراً من أجل إيصال الجمهور إلى درجة القناعة ببضاعته، ونراه في سبيل ذلك يستخدم الكلمة والصورة والهدية وغير ذلك من الوسائل.

وقد جعل الله تعالى مهمة رسله وأنبيائه البلاغ، فقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: 35]، ووصف **﴿البلاغ﴾** بأنه **﴿مُبين﴾**.

ولا معذرة للداعية إذا قَصَّر في البلاغ، ولقد نبَّه الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً ﷺ إلى مثل هذا قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67]، وليس المقصود بالبلاغ مجرد الإخبار أو الإعلان، إنما المراد أن تصل رسالته إلى الناس.

وفي الإشارة إلى هذه النقطة أمرَ الله نبيَّه محمداً ﷺ أن يبيِّنها - يعني: سبيلَه - البيانَ الذي يُصَيِّرُها مُشاهَدَةً بالعَيانِ، ويُشارُ إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات.

﴿هَٰذِهِۦ﴾ تعظيم للدعوة:

يقول ابن يعيش رحمه الله تعالى: «إذا أَرادوا تعظيم الأمر والمبالغة في إيضاح المقصود جمعوا بين التنبيه والإشارة، وقالوا: هذا، وهذه، وهاته، وهاتا، وهاتي... و«ها» للتنبيه، و«ذا» للإشارة، والمراد تَنَبَّه أيها المخاطب لمن أشير إليه».

وإنها لعظيمة حقاً، إذ هي سبيل النبي ﷺ والأنبياء قبله، وأتباعهم الصالحين. والدعوة أشرف مقامات العبد وأجلُّها وأفضلها.

﴿هَٰذِهِۦ﴾ قريبة مني:

اسم الإشارة (هذه) يؤتى به إذا كان المشار إليه قريباً، وهذه الدعوة بمبادئها مطابقة للفطرة، قريبة من القلب والنفس، حبيبة إليهما.

إن التعبير باسم الإشارة (هذه) يعني: أنه لا بد أن تكون الدعوة قريبة منك، لا تجفوها، بل تهب لها حياتك، فأنت في بيتك داعية، وفي عملك داعية، وفي السوق داعية، وفي الصباح داعية، وفي المساء داعية، وهكذا كان رسول الله ﷺ لقد دعا في جميع الأماكن والأزمان والأحوال، ودعا جميع أصناف الناس، واستخدم جميع الأساليب المشروعة. دعا فوق الجبل، وفي المسجد، وفي الطريق، والسوق، وفي منازل الناس في المواسم، وحتى في المقبرة، دعا في الحضر والسفر، وفي الأمن والقتال، في صحته ومرضه، وحينما يزور أو يزار.

ولنضرب مثلاً واحداً يبين ذلك، أخرج الإمام البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه عن أنس ﷺ قال: كان غلام يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

﴿سَبِيلِىٓ﴾: قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: «﴿سَبِيلِىٓ﴾: طريقي ودعوتي».

لِمَ عَبَّرَ عن الدعوة بالسبيل؟

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره: وسمي الدين سبيلاً؛ لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125].

واعلم أن السبيل في أصل اللغة: الطريق، وشبَّهُوا المعتقداتِ بها لما أن الإنسان يمرُّ عليها إلى الجنة.

لِمَ لَمْ يقل طريقي؟

ذكر السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه الإتقان في علوم القرآن في قاعدة في الألفاظ التي يُظَنُّ بها الترادفُ وليست منه، الفرق بين السبيل والطريق فقال: ومن ذلك السبيل والطريق، والأول أغلب وقوعاً في الخير، ولا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلا مقروناً بوصف أو إضافة تخلصه لذلك، كقوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30].

وقال الراغب الأصفهاني: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة.

وهكذا فقد تحقق في لفظ السبيل أمران: الخير والسهولة، دليل الأول قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، إذ إن معنى الدعاء إلى الخير: الدعاء إلى الإسلام، وبثّ دعوة النبي ﷺ، فإن الخير اسم يجمع خصال الإسلام.

ودليل الأمر الآخر قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى: 8]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: نُسَهِّلُ عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر.

وما أحسن تفسير البقاعي رحمه الله تعالى للسبيل حيث قال: ﴿سَبِيلِ﴾ القريبة المأخذ، الجلية الأمر، الجليلة الشأن، الواسعة الواضحة جداً.

﴿سَبِيلِ﴾ سبيل واحدة:

وقد أفرد السبيل؛ لأنها واحد مستقيمة، لا عِوَجَ فيها ولا شَكّ ولا شُبْهَة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]، أمرهم باتباع الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ونهاهم عن اتباع سائر السبل، أي الأديان المتباينة طرقها ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ أي: تميل بكم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن سبيل الله المستقيم الذي هو دين الإسلام.

قال ابن عَطِيَّةَ رحمه الله تعالى: وهذه الآية تَعُمُّ أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد.

﴿سَبِيلِ﴾ اعتزاز وافتخار:

في إضافة السبيل إلى ضمير المُتَكَلِّم مزيدٌ من الاعتزاز، فقد جعل الدَّعْوَةَ سَبِيلَهُ هُوَ، يَتَشَرَّفُ ويُحِسُّ بالاعْتِزازِ بالانتماءِ إليها.

إنَّ أهمية الانتماء لدى الإنسان تبرز في أنه عامل من أخطر عوامل العطاء، وأداة فعالة لإصلاح كثير من جوانب حياتنا الفردية والاجتماعية؛ لأن الإنسان حين يستشعر الولاء لجهة، فإنه يعطي لها أكثر مما يأخذ، فيعمل قصارى جهده على الارتقاء بها، والعمل المخلص في سبيلها، وخاصة إذا كان هذا الولاء لله، والانتماء للإسلام، فإنه فضلاً عن تحقيق تلك المقاصد الاجتماعية الجليلة، يأخذ بيد الإنسان نحو الكمال الخلقي، والارتقاء الإنساني من خلال ما يبعثه ذلك الانتماء في قلبه من معاني الإيمان الصادق بالله، وأسباب الخشية منه سبحانه، ومن ثم يتخلص بهذا الطريق القويم من كثير مما يشوب حياته من ضعف إنساني وقصور أخلاقي، وأنانية مفرطة، وتسابق في تحقيق الرغبات الفردية والتطلعات الشخصية على حساب مقدرات الجماعة، ودون مراعاة لأبسط قواعد التوازن الذي ينبغي أن يكون موجوداً بين الفرد ومجتمعه، وما أكثر ما نعانيه من ذلك الخلل المفرط والسلبية الواضحة، والتي أصبحت سمة من سمات حياة كثير من الأفراد في تعاملهم مع المجتمع.

﴿سَبِيلِىٓ﴾ شعور بالمسؤولية:

إنَّ على كل مسلم أن يشعر بأن هذه السبيل، وهي دعوة الناس إلى الله تعالى، هي سبيله، ولذا فهو يملك قلباً يحترق على واقع المسلمين، لا بد أن يملك قلباً يتأثر لأخطاء المسلمين وانحرافهم عن الدين، فيحزن لانتشار الفسق والمعاصي بينهم، حزناً لا يدفعه لاعتزالهم إنما يدفعه لأن يشعر أنه كالطبيب معهم يحاول إنقاذهم، فإن لم يدرك ذلك كله فَلْيُقلِّل من هذا الانحراف بقدر ما يستطيع.

إن من يحسُّ بالمسؤولية يهون عليه ما يلقاه من أذى وما يتحمله من مشاق، إن هذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما

تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة، بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنها مستغرقة في الشعور بالله، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه، فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ تعريف الجزأين يدل على القصر:

يصرِّحُ المسلم هنا بأن الدعوة إلى دين الإسلام هي سبيله، ولا سبيل له غيرها، مهما تَعدَّدَتِ المذاهبُ وتَشَعَّبَتِ الطرقُ، فالمسلمُ يسألُ اللَّهَ تعالى أن يثبِّتَهُ على الإيمان ويختم له به، ويعصمه من الأهواء المختلفة، والآراء المتفرقة، والمذاهب الرَّدِيَّة، مثل: المشبِّهَة، والمعتزلة، والجهمية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالَفُوا الضَّلَالَة.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الجملة الاسمية تدل على الثبوت:

إن الإيمانَ ليس كلمةً تُقالُ، إنما هو حقيقةٌ ذاتُ تكاليف، وأمانةٌ ذاتُ أعْباءٍ، وجهادٌ يحتاج إلى صبر، وجُهْدٌ يحتاج إلى احْتِمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمَنّا، وهم لا يُتْرَكون لهذه الدعوى حتى يتعرَّضوا للفتنة فَيَثْبُتُوا عليها، ويَخْرُجُوا منها صافيةً عناصِرُهُم، خالصةً قُلوبُهم.

إن من أبرز صفات الموقنين الصادقين في إيمانهم: الصبرَ على البلاء، والثباتَ عند نزول المحن، ومواجهةَ كلّ رزيَّة بالجلَد والصبر والاحتساب، وعدمَ الاكتراث لكل ما يواجهونه في طريقهم إلى الله تعالى من أجل الحفاظ على عقيدتهم والثبات على دينهم،

وما سلك أحد هذا الطريق إلا امتحن الله سبحانه صدق إيمانه من عدمه بضروب من البلاء، وأصناف من المحن.

ومواطنُ الثبات في حياة المسلم كثيرة، منها: الثبات في الفتن، وهي أنواع، منها: فتنة المال، والجاه، والزوجة، والأولاد، وفتنة الاضطهاد والطغيان والظلم... ومنها: الثبات في الجهاد، والثبات على منهج الله، فمبادىء المسلم أغلى من روحه، ومنها: الثبات عند الممات.

وهناك وسائل للثبات، منها: الإقبالُ على قراءة القرآن تلاوةً وحفظاً وتدبراً، والالتزامُ بشرع الله، وسنّة نبيّه ﷺ والعملُ الصالحُ، وتدبرُ قصص الأنبياء ودراسَتُها للتأسّي والعلم، والدعاءُ، وذكرُ الله، والحِرْصُ على سلوكِ طريق أهل السنة والجماعة، والتربيةُ بأنواعها، والثقةُ بالطريقة، وممارسةُ الدعوة إلى الله ﷻ... إلخ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَفْصِيلٌ بعد إِجْمالٍ:

إن للتفصيل بعد الإجمال، أَو الإيضاح بعد الإبهام، أثراً في النفس؛ وذلك لأن المعنى يظهر بصورتين مختلفتين: الأولى: مبهمة مجملة، والثانية: موضحة فيتمكن فيها خير تمكن وأفضله، هذا من جهة، وتكمل لذة العلم به من جهة أخرى. وبدهي أن تدرك الفرق بين شيئين: أحدهما حصل لك به العلم دفعة واحدة، وثانيهما علمته على سبيل التدرج شيئاً بعد شيء، فإنك لا شك واجد لهذا الأخير لذة لا تجدها لسابقه. وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد دراستها إبهامٌ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ فسَّرَتْه جملةُ ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

أَهَميَّة الدَّعوةِ إلى الله تعالى:

إنَّ التفصيلَ بعد الإجمال قد بَيَّنَ حقيقة مهمة جداً، وهي أن سبيل الرسول ﷺ والمؤمنين المتبعين إنما هي الدعوة إلى الله تعالى، فحصر السبيلَ في الدعوة، وما ذلك إلا لأهميتها.

إن الدعوة إلى الله ﷻ - التي أهملها كثير من المسلمين اليوم - فريضةٌ حَمَلَها رسولُ الله ﷺ وجميع الأنبياء قبله، كما حَمَلَها أتباعُهم الصادِقون الذين اقتفوا أثرهم من بعدهم واقتدوا بهم في منهجهم وسلكوا سبيلهم، ولم يقعد بهم عن السير في هذا السبيل ما يعرفونه من المخاطر والمكاره التي تحيط بها، ولكنه الواجب الذي لا خيار فيه، وصدق الإيمان الذي يهون معه - في سبيل الله - كل بلاء، والأمانة التي حملوها بعد رسول الله ﷺ وتحمَّلوا تبعاتها، وأصبحوا مسؤولين عنها أمام الله ﷻ.

والذي يوضح أهمية الدعوة ويبيّن عظيم خطرها، أن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ كان الرسلُ عليهم الصلاة والسلام يُحِسُّون بجسامة ما يُكَلَّفُون به.

إنه الأمر العظيم: أَمْرُ رِقَابِ الناس، أَمْرُ حَياتِهم وَمَمَاتِهِم، أَمْرُ سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية، التي إمّا أن تُبَلَّغَ إليها الرسالةُ فَتَقْبَلَها وَتَتَّبِعَها فَتَسْعَدَ في الدنيا والآخرة، وإما أن تُبَلَّغَ إليها فَتَرْفُضَها وتنبذَها فتشقى في الدنيا والآخرة. وإما أن لا

تُبَلَّغَ إليها فتكون لها حُجَّةٌ على ربِّها، وتكونَ تَبِعَةُ شقائِها في الدنيا وضَلالِها مُعَلَّقَةً بِعُنُقِ مَنْ كُلِّفَ التبليغَ فلم يُبَلِّغْ.

فأمّا رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقد أَدُّوا الأمانة وبلَّغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يُبَلِّغوها دعوة باللسان، ولكن بلَّغوها ـ مع هذا ـ قُدْوَةً ممثَّلة في العمل، وجِهاداً مُضْنِياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين، بما أنّه المبلِّغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات.

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته، فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ﷺ، وتبليغ هذه الأجيال مَنوط ـ بعده ـ بأتباعه، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة ـ تبعة إقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا ـ إلا بالتبليغ والأداء... على ذات المنهج الذي بلَّغ به رسول الله ﷺ وأدّى.

﴿أَدْعُوٓاْ﴾: الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار:

كثيراً ما نجد المسلم مندفعاً نحو الدعوة اندفاعاً شديداً، ثم يتولاه سأم وانصراف، اللفظة القرآنية: ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ تدعو إلى أن يكون عمل المسلم مستمراً لا ينقطع، ويستدل لهذا بما أخرجه الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب الإيمان من صحيحه عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «**من هذه**»؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها. قال: «**مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا**»، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه

صاحبه. وقد ترجم الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله: باب أَحَبُّ الدينِ الى الله أدْوَمُه.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: **الإخلاص:**

أدعو إلى الله تعالى لا إلى غيره من مَلِكٍ أَو إنسانٍ أو كوْكَبٍ أو صَنَم، إنما دعائي إلى اللَّهِ وحده. وهكذا كان ﷺ يدعو إلى دين الله، ويبيِّن هو ذلك الدين ويمثِّله، فما دعا إلى نفسه أبداً، فقد مات ودِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ في دَيْنٍ، وما دعا إلى قومه، فقد كان يقول: «**لا فضل لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بتقوى الله**». [أخرجه الإمام أحمد].

وينبغي أَنْ يُعْلَمَ أنه ليس كل من زعم أنه يدعو إلى الله يكون صادقاً في دعواه، فلا بد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين، والفرق بينهما مستفاد من الآية، وذلك أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، ولا يجلب لها جاهاً ولا مالاً، ولا يبغي لها في الناس مدحاً ولا منفعة، أما الكاذب فإنه بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله، وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾.

إن على المسلم أن يجعل هذا الأمر نصب عينيه، إذ إن عمله لا يقبل إلا بشرطين: أن يكون خالصاً لله أولاً، وأن يكون صواباً على شريعة رسول الله ﷺ ثانياً، وقد ذَكَرَتْ هذه الآيةُ الكريمة هذين الشرطين: الإخلاص في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، والصواب في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أهمية الإخلاص فقال عليه أفضل الصلاة

والسلام: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**. [أخرجه البخاري].

العالَمِيَّةُ مَرَّةً أخرى:

يقول تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والسؤال هو: أَدعو مَنْ؟ يقول أبو حيان، رحمه الله تعالى في تفسيره: «البحر المحيط» ومفعول أدعو محذوف تقديره: أدعو الناس، والصحيح أن دعوته ﷺ تشمل الإنس والجن، ولذا فقد أحسن البقاعي ـ رحمه الله تعالى ـ حينه عمم المدعوين بقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ كل مَنْ يصحّ دعاؤه.

والمدعوُّون أصنافٌ كثيرة، يظهر ذلك من خلال التقسيم الآتي:

بحسب العقيدة والدين:

(المسلمون. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى. والكفار والمشركون).

وبحسب المكان، وهم:

(أهل الحضر. وأهل البادية، وهم الأعراب).

وبحسب السن والعمر، وهم: (الأطفال. والكبار).

وبحسب الجنس، وهم:

(الرجال ـ والنساء).

وبحسب القرابة، وهم:

(الأولاد، والزوجات، والآباء، والإخوة، والأخوات، وسائر القرابات). وغير القريب، وهم سائر المدعوين غير ما ذكر في الفقرة السابقة.

وبحسب اللغة، وهم:

(العربي. والأعجمي).

وبحسب المكانة، وهم:

(الملأ. وعامة الناس. والخدم والمماليك).

وبحسب الرغبة في العلم والإيمان، وهم:

(الحريص. والحيي. والمُعْرِض).

وبحسب الإيمان، وهم: (قوي الإيمان ـ وضعيف الإيمان).

وبحسب العلم، وهم:

(طالب العلم. والعوام وجهلة الناس).

ولكل صنف مما سبق سمات خاصة قد تختلف عن الآخرين، مما يوجب على الداعية أن يختار مع كل صنف ما يناسبه من الوسائل والأساليب.

إلى متى أدعو؟

لَمْ تُحَدِّدْ الآيةُ الكريمةُ وقتَ انتهاء عمل الدعاة إلى الله تعالى، ولكن القُدْوةَ محمداً ﷺ قد بين ذلك أتمّ بيان، من خلال سيرته العطرة، فقد كان يدعو وهو في مرض الموت، فعن

عائشة ـ ﵂ ـ قالت: لمّا اشتكى النبي ﷺ ذكَرَتْ بعضُ نسائه كنيسة رأيْنَها بأرض الحبشة يقال لها مارية، وكانت أمُّ سلمة وأم حبيبة ﵄ أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: **«أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله»**. [أخرجه البخاري].

وفي هذا يقول ابن باديس ـ رحمه الله ـ: فالنبي ﷺ من يوم بعثته إلى آخر لحظة من حياته كان يدعو الناس كلهم إلى الله، بأقواله وأفعاله وتقريراته، وجميع مواقفه في سائر مشاهده.

﴿ٱللَّهِ﴾: عَلَمٌ على ذات الحق تبارك وتعالى:

(الله) هو: الاسم العَلَمُ الذي اختص به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فهو عَلَمٌ على الذات المقدسة التي نؤمن بها، ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا.

وهو رأسُ الأسماء الربّانيّة الحُسْنَى التي وصف الله ذاته العلية بها، وحضَّ على ترديدها ودعائه بها، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110].

وهو عَلَمٌ على ذات الحق الجامع لكل صفات الجمال والجلال والكمال. وقد تفرّد الحق سبحانه بهذا الاسم، وخص به نفسه، وجعله أول أسمائه، وأضافها إليه، ولم يضفه إلى اسم منها، فكل ما يرد بعده يكون نعتاً له وصفة.

والإلٰهُ في لغة العرب أطلق لمعان أربعة، هي: المعبود، والملتجأ والمنزوع إليه، والمحبوب حُبّاً عظيماً، والذي تحتار العقول فيه، أي: في إدراك عظمته ومعرفة قدرته، وكل هذه المعاني ثابتة في حق الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه المعبود بحق، وهو الذي يُلجأ إليه في النوائب والشدائد، وليس لنا سواه عند الكروب، والمحبوب المعظم سبحانه، والعقول تتحير في أسراره وأعماله، ومعنى الحيرة هنا: التعظيم وعدم إدراك الكنه، فهو سبحانه أعظم من أن تدركه العقول، وتحيط به الفهوم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: توحيد الإلٰهية:

مَرَّ معنا أن من معاني لفظ الجلالة (الله) أنه المعبود بحقّ، وهو الذي يُلْجَأُ إليه في النوائب والشدائد، إذن المقصود هنا أن الدعوة إلى الله إنما تعني: الدعوة إلى توحيد الألوهية وهو الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، وهو متضمن توحيد الربوبية، وأن خالق السمٰوات والأرض واحد كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25].

وهذا التوحيد أعني: (توحيد الربوبية) لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات.

﴿عَلَىٰ﴾ التمكن:

اختيار (على) لتدلّ على تمام التمكّن، والمعنى: وأدعو إلى الله ببصيرة متمكناً منها.

﴿بَصِيرَةٍ﴾ من البصر بالقلب:

أي: على بصيرة من أمره كأنه يبصره بعينه، بحيث يكون على حجة واضحة ويقين من أمره بنظره الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة؛ لأن البصيرةَ: المعرفةُ التي يتميَّزُ بها الحقُّ من الباطل ديناً ودنيا بحيث يكون كأنه يُبْصَرُ بالعين، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، فدلّ على بصيرة القلوب، والنبي ﷺ أُوتي البَصَرَ والبصيرة هو ومَن اتَّبعَه وسار على دَرْبِه، وكان على نهجه وسُنّته وسيرته، وورث العلمَ المحَمَّديّ، بالسند المُتّصل إليه، أمّا هو ﷺ فقد رأى بأمّ عَيْنه أمور الغيب يوم الإسراء والمعراج فرأى واجتمع بإخوانه الأنبياء، وشاهد الملائكة، والسمٰوات، ودخل إلى ملكوت الله، ورأى الجنَّةَ رأي العين، ورأى النارَ، وشاهد أصنافاً من النعيم والعذاب ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: 18]، وأما أتباعُه من الصالحين فقد أثبت اللَّهُ لهم في هذه الآية علم البَصيرة، وهو يكشف لهم من آياته وعلومه ما لا يراه غيرهم، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 105]، فهم يتولَّون من بعده ﷺ دعوة الناس وإرشادهم وهدايتهم على بصيرة، كما كان هو ﷺ يدعو على بصيرةٍ وهدىً ونور من ربه، وقد قال ﷺ **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

ويقول المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ وفي قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إيحاء إلى أن هذا الدين الحنيف، لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب، ولكنه دين حُجَّةٍ وبرهان، فقد ذكر مذاهب المخالفين، وكرَّ عليها بالحجة، وخاطب العقل واستنهض الفكر، وعرض نظام

الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه».

﴿بَصِيرَةٍ﴾ التنكير للتعظيم:

وإذن فهي بصيرة عظيمة... وسنتعرف على جوانبها فيما يأتي:

البصيرة فيما يتعلق بالداعية نفسه:

وذلك بأن يتصف بصفات كثيرة منها: الإخلاص، وقوة الصلة بالله سبحانه وتعالى، وذلك من خلال المحافظة الشديدة على الفرائض، والإكثار من النوافل، واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى على كل حال. والعلم الذي به تصح النية، والمنهج، وأهم العلوم التي يحتاجها الداعية إلى الله سبحانه وتعالى: علم الكتاب والسنَّة، وما يتفرع وما يتصل بهما. والورع والتقوى؛ وذلك لأن الداعية محل نظر المدعوين. وحسن الخلق؛ لأنه من أعظم ما يجذب المدعوين إلى الداعية، وهو يشمل عدة فروع منها: (الصبر، والجود، والتواضع، والحلم، والأناة، والعفو، والرفق واللين، والوفاء، والحياء واحترام الكبير، والرحمة، والحرص على النظافة). والاستشارة؛ لأن الآراء عندما تجتمع تنضج وتخرج بصورة جيدة وقليلة الأخطاء. والحرص والمبادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمداومة على العمل والمحافظة عليه، والتفاؤل والثقة بنصر الله سبحانه وتعالى وحسن الظن به. وحسن السمت، وحسن استغلال الفرص والمواقف. وفصاحة اللسان.

obeikandl.com

البصيرة فيما يتعلق بالمدعو:

مرّ معنا أن المدعوين أصناف كثيرة، ونود هنا أن نشير إلى أن لكل صنف سمات، فمثلاً نجد أن استجابة المؤمن للموعظة والتذكير أسرع من استجابة غيره، وأن من سمات الملأ الغالبة: التكبر، وشدة التعلق بالدنيا. ومن سمات الأعراب: الجفاء، وعدم الاهتمام بالمظهر، ورفع الصوت، والجرأة، والعجلة.

وهناك أمور ينبغي أن يراعيها المسلم عند الدعوة إلى الله تعالى منها:

أن أمور المدعوين محمولة على الظاهر دون الباطن. وأهمية إشعار المدعو بأن عليه مسؤولية كبيرة في البحث عن الحق وطلبه، والعمل به متى ما استبان له. واختلاف درجات المدعوين في الاستجابة للدعوة، أو الإعراض عنها. وتنوع واختلاف أحوال المدعوين، مما يؤكد أهمية مراعاتها أثناء عرض الدعوة عليهم.

وهذه نقطة مهمة، فالبصيرة تظهر على شكل أنواع من السلوك، وألوان من التصرف والتعامل، وطرائق من الاختيار، تتقرر بعد معرفة المدعوين وإدراك أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية، ومما لا شك فيه أن التعامل مع المجهول شاق وصعب، في حين أن التعامل مع المعروف يوفر الكثير من الجهد.

البصيرة فيما يتعلق بموضوع الدعوة:

من البصيرة أن يرتب الداعية موضوعات الدعوة حسب أهميتها

الشرعية، فلا يقدم موضوعاً على آخر هو أهم منه، هذا وإن الأصل في أوليات الدعوة الذي يجب على الدعاة الالتزام به هو ما يأتي: التوحيد وقضايا العقيدة. وأركان الإسلام، وخاصة منها الصلاة. ثم تأتي بقية موضوعات الشريعة على حسب أهمّيتها وتقديم الشارع لها.

وينبغي أن يعلم أن من البصيرة مراعاة أحوال المدعوين عند اختيار الموضوع، كما يجدر مراعاة المصالح والمفاسد التي تترتب على اختيار الموضوع وطرحه للمدعوين، فهذا أبو هريرة ﷺ يقول: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما: فبثثته، وأما الآخر: فلو بثثته قطع هذا الحلقوم. [أخرجه البخاري].

فلا بد من الحرص على هذه القاعدة المهمة واستصحابها في جميع الأحوال. فالأصل هو تبليغ العلم وعدم كتمانه، ولكن قد يكون هناك بعض الأحوال التي يكون السكوت فيها هو الذي تقتضيه المصلحة، فتركه التبليغ لذلك الأمر لا يدخله في الذم الوارد للكاتمين العلم، بل هو عين الحكمة التي يأمر بها الشارع.

وقد ترجم البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ لمثل هذا الأمر فقال: باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ثم أورد أثر علي ﷺ عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟.

البصيرة المتعلقة بالأساليب:

المراد بالأساليب: الطرق التي يسلكها الداعية في نشر الإسلام وهي كثيرة ومتعددة، تعود في مجملها إلى ثلاث مجموعات، وهي:

1 ـ مجموعة الأساليب التي تحرّك الشعور والوجدان، والتي بمجموعها تمثّل المنهج العاطفي، كأسلوب الوعظ والتذكير، وأسلوب الترغيب والترهيب، وأسلوب تحريك العاطفة الإيمانية وتهييجها، وأسلوب الدعاء المؤثر.

2 ـ مجموعة الأساليب التي تدعو إلى التفكّر والتدبّر والاعتبار، والتي بمجموعها تمثل المنهج العقلي، كأسلوب المقارنة بين الحسن والقبيح، وأسلوب المناظرة، وأسلوب التوضيح والتعليل العقلي، وأسلوب الرد على الشبهات.

3 ـ مجموعة الأساليب التي تعتمد على الحِسّ والتجارب الإنسانية، والتي بمجموعها تمثل المنهج الحِسّي، كأسلوب القدوة الحسنة، وأسلوب ذكر الداعية تجاربه وما يظهر عليه، وأسلوب تحفيظ المدعو، وأسلوب الإحسان للمدعوين ومساعدتهم.

وهناك الأساليب العامة، والتي تشمل الأساليب السابقة أو بعضها، كأسلوب الخطابة، وأسلوب القصص، وأسلوب التعليم، وأسلوب السؤال والجواب.

وبما أن الأساليب كثيرة ومتنوعة، فينبغي على الداعية أن يختار الأسلوب المناسب للمدعوين، وذلك بالنظر إلى حالهم وزمانهم ومكانهم، فمثلاً نجد أن رسول الله ﷺ يستخدم أسلوب الرفق واللين في بعض المواقف، وفي مواقف أخرى يستعمل الشدة.

وينبغي على الداعية التنويع بين هذه الأساليب؛ وذلك لأن المدعو فيه ثلاث ركائز، وهي: العاطفة، والعقل، والإحساس،

فالداعية الموفّق هو الذي يستخدم الأساليب التي تشبع الركائز الثلاث بشكل متوازن ومتناسق.

البصيرة المتعلقة بالوسائل:

الوسائل، هي: الأدوات المادية والمعنوية التي يستخدمها الداعية لنشر الإسلام.

وتنقسم الوسائل إلى قسمين:

1 ـ **الوسائل المادية**: وهي جميع الأدوات المحسوسة كالقول والعمل.

2 ـ **الوسائل المعنوية**: ويقصد بها الأدوات التي يستخدمها ويكون أثرها غير مباشر على المدعوين، فمثلاً عندما يقوم الداعية بالصلاة قبل البدء بالدعوة لينصره الله ﷻ، ويعينه على المدعوين والتأثير فيهم، فهي من هذا الجانب شيء معنوي لعدم الإحساس المباشر بأثرها.

وللوسائل تقسيم آخر، وهو:

1 ـ **الوسائل الأصلية**: كالقول والعمل.

2 ـ **الوسائل المساعدة**: كالمِنْبَر، ومكبر الصوت، واللباس، واستغلال المواقف، والعرض، والنظر إلى المدعو أثناء الحديث معه.

obeikandl.com

ومما يؤكد عليه أن وسائل الدعوة كثيرة جداً، وأنه يجوز للداعية أن يستخدم كل الوسائل بشرط أن لا يرد مانع شرعي من استخدامها.

﴿أَنَا﴾ في المقدمة:

لما كانت الدعوة إلى الله تعالى شاقة وطريقها طويلة، كان لا بد للدعاة من التقدم وإعطاء أروع الأمثلة في الثبات والتضحية، ونرى رسول الله ﷺ يتقدم ـ وهو المقدم ـ فيبين أنه أول الداعين إلى الله، وهكذا كان، فلم يكن شأنه عليه الصلاة والسلام أن يعتزل الناس ويترك الأتباع ينزلون إلى الميدان، بل كان يبرز للناس، فقد أخرج الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟... الحديث.

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ عند شرحه لهذه العبارة من الحديث: أي: ظاهراً لهم غير محتجب عنهم.

﴿أَنَا﴾ إعلان عن نفسه:

يقول ابن باديس ـ رحمه الله تعالى ـ: (أنا) تأكيد للضمير المستتر في (أدعو)، ونكتته: الإعلان عن نفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها.

﴿أَنَا﴾ تشريف:

وسبب ثان لتأكيد الضمير المستتر في (أدعو) هو: أن هذا

الموضع في غاية الشرف، فأكد الضمير تعييناً وتنبيهاً على التأهيل لظهور الإمامة.

﴿أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾:

وسبب ثالث لتأكيد الضمير المستتر، وذلك حتى يتصل اللفظ الدال عليه (أنا) باللفظ الدال على أتباعه كما تتصل بدعوته، وشأن الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية، والكلام تصوير للواقع.

﴿وَمَنِ﴾ الاسم الموصول يفيد العموم:

والمراد أن كل من اتبع النبي ﷺ يدعو إلى ما دعا إليه ﷺ فهو المبلِّغ للإسلام كاملاً، ثم جاء من بعده صحابته الكرام ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ الذين بلغوا هذا الدين عنه، كل على حسب قدرته واستطاعته.

ومن عموم ﴿وَمَنِ﴾ نستنبط أن القيام بالدعوة على الجميع كل حسب استطاعته، وينبغي أن لا يغفل عن دور النساء، فلقد كانت أم شريك ـ ﵂ ـ تقوم بالدعوة سراً في أوساط النساء بمكة المكرمة، رغم معارضة قريش الشديدة لذلك.

وحرصت أم سُلَيْم ـ ﵂ ـ على تلقين ابنها أنس ﵁ شهادة الإسلام رغم معارضة زوجها، ودعت أبا طلحة إلى الإسلام حين تقدم إليها، ولم ترض منه مهراً سوى الإسلام. (الطبقات الكبرى لابن سعد 8/ 425).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: يدعون لأنهم متبعون:

(مَنْ) اسم موصول، الاسم الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة.

وفي هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدي به في الدعاء إلى الله، أي: الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ تكريم للأمة الإسلامية:

إن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية وشرَّفها أن أشركها مع رسوله الكريم ﷺ في وظيفة الدعوة إليه، وهذا التشريف والتكريم ورد في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. [آل عمران: 110].

فهذه الآية الكريمة أفادت معنيين، الأول: خيرية هذه الأمة، والثاني: أنها حازت هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي وظيفة رسول الله ورسل الله جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم.

الدعوة إلى الله تعالى واجبة:

لما كانت متابعة الرسول ﷺ واجباً شرعياً، لا جرم أن أصبحت الدعوة واجباً شرعياً؛ لأن القائمين عليها هم المتبعون.

وقد اختلف العلماء، هل الدعوة إلى الله تعالى فرض عين على كل مسلم، أو هي فرض كفاية؟ بناء على اختلافهم في (منكم)

من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، هل هي للبيان أو للتبعيض؟ إن العصر الذي نعيش فيه يشكو من قِلَّةِ الدُّعاةِ، فالكفاية لم تَتَحَقَّق، فإن تحقَّقت أمكننا أن نناقش هذه المسألة!

﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ الاتِّباع:

معنى ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ صَدَّقَني وآمَنَ بِي. وإنَّما عبَّر عن ذلك ـ ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ لما للاتّباع من الأهمية العظيمة، ويكفي أن علامة محبة الله تعالى متابعة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: 31].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه الآية حاكمة على كُلِّ من ادعى مَحَبَّةَ الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يَتَّبع الشرعَ المُحَمَّدِيَّ والدينَ النبويّ في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عَمِلَ عَمَلاً ليس عليه أَمرُنا فهو رَدّ**». ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول.

وفي لفظة ﴿ٱتَّبَعَنِى﴾ سِرٌّ لطيف، وهو أن المسلم يسير خلف النبي ﷺ ولا يُقَدِّمُ بين يَدَيْهِ أَيَّ قَوْلٍ أو فِعْلٍ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: 1]. والمعنى: لا تعجلوا بقولٍ أو فعلٍ، قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

أهمية الأتباع في الدعوة إلى الله تعالى:

إن لوجود الأتباع أهمية كبيرة في الدعوة إلى الله، ولولا ذلك لما كان هناك فائدة في أن يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ فيعطف أتباعه عليه، ولذلك فقد امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بذلك فقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62].

فوجود المؤمنين تأييد من الله تعالى لرسوله ﷺ، إذ وفَّقهم لاتِّباعه فشرح صدره بمشاهدة دعوته وتزايد أمته. وقد كان ﷺ يستعين ببعض الصحابة لنشر الإسلام وتعليم القرآن الكريم، كإرساله مصعب بن عمير ﷺ للمدينة لتعليم أهلها القرآن، ومنها: قوله لوفد عبد قيس بعد أن أمرهم ونهاهم وسألهم عن الإيمان بالله وحده: **«احفظوهن وأخبروا بهن مَنْ وراءكم»**.

وهذه مسألة مهمة، أعني: استعانة المسلم بغيره لتبليغ الدعوة، وذلك لمحدودية إمكانيات الداعية في مقابل حاجة الدعوة وتنوعها وكثرة المدعوين وتعدد أصنافهم ولغاتهم.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: تنزيه وتعظيم:

أي: قل تنزيهاً لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه.

﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾ التعبير بالمصدر للمبالغة:

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَسُبۡحَٰنَ﴾ مصدر التسبيح، جاء بدلاً عن الفعل للمبالغة، والتقدير: وأسبح الله سبحاناً.

وعلى هذا فينبغي أن يكون تنزيه الداعيةِ اللَّهَ تعالى على أكمل الوجوه.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: تنزيه العلماء:

لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ يجمع صفات الكمال؛ لأن أصله الإِله، ومدلول الإِله يقتضي جميع صفات الكمال.

ولما كان الأمر كذلك فلن ينزِّهَ الداعيةُ اللَّهَ تعالى التنزيهَ المطلوبَ ما لم يكن عالماً بأسمائه وصفاته، والتسبيح: هو التمجيد والتنزيه، واستحضارُ معاني الصفات الحسنى لله، والحياةُ بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإِشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور، وليست هي مجردَ ترديد لفظ سبحان الله.

ومما يؤكد أهميّة معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ما تثمره في قلب المؤمن من زيادة في الإِيمان، ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحصِّنه من الشبهات المضلِّلة والشهوات المحرمة.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تَوَاضُعٌ:

يقول البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد أن ذكر تنزيه المؤمن ربه، وأن

المعنى: أقدِّره حق قدره، فأثبت له من صفات الكمال ما يليق بجلاله وما يرضى به قال: في تخصيص الله بذلك، عقب ما أثبت له ولأتباعه تلويح بنسبة النقص إليهم تواضعاً، اعتذاراً عما يلحقهم من الوهن وطلباً للعفو عنه.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ خصوص بعد عموم:

إن هذا التنزيه المستفاد من (سبحان الله) داخل في قوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولكنه خصص بالذكر لعظم شأنه، فإنه ما عرف الله تعالى مَنْ شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يخبر أنه في خاصة نفسه مُنتَفٍ عن الشرك، وأنه ليس ممن أشرك، وهو نفي عام في الأزمان، لم يكن منهم ولا في وقت من الأوقات.

البراءة من المشركين:

قال الطبري رحمه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك، لست منهم ولا هم مني.

وكان ﷺ يعلن براءته من المشركين، وأنه ليس منهم، براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم، فهو مباين لهم في العقد والقول والعمل مباينة الضد للضد، فلما باين التوحيدُ الشركَ باين هو المشركين.

النص على البراءة من المشركين:

قال ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه البراءة والمباينة، وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه، فإنها نص بالتصريح لتأكيد مباينة المشركين، والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفية.

وهذا يبين لنا أهمية البراءة من المشركين في حياة المسلم، وليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من الولاء والبراء، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده.

لِمَ لَمْ يقل: وما أنا مشركاً؟

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: وعدل عن (مشركاً) إلى أبلغ منه فقال: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: في عداد مَنْ يُشْرِكُ به شيئاً بوَجْه من الوُجوه.

وإن كنتُ فيهم فلستُ منهم:

إن في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ دلالة على أن المسلم يخالط الناس، بل يخالط المشركين، ولكنه لا يذوب فيهم فيصبح منهم، بل يحاول من خلال اختلاطه بهم أن يدعوهم إلى التوحيد ما أمكنه ذلك، مقتدياً في ذلك بالنبي ﷺ في دعوته للمشركين.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ التَمَيُّز:

إن المسلم وإن كان عليه أن يخالط الناس، فإنه ـ كما أسلفنا ـ

ينبغي أن لا يذوب في المجتمع بل لا بد له من تميز إيماني ظاهر، ومن غير هذا التميز لن تؤدي دعوته شيئاً ذا قيمة.

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي، والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات، ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام، هؤلاء لا يذكرون طبيعة هذه العقيدة، ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب. إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم، أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص، وطريقهم الخاص، وسبيلهم التي تفترق تماماً عن سبيل الجاهلية.

وبعد تفسير هذه الآية الكريمة المتعلّقة ببيان سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ننتقل إلى بيان أمور لا غنى عن معرفتها لكل إنسان مسترشد يريد معرفة السبيل إلى الله.